

معايير شعر المديح عند النقاد العرب القدماء

د. حسين علي الزعبي*

الملخص

عالج هذا البحث معايير شعر المديح في سياق الخطاب النقدي العربي القديم، وقد تجلت هذه المعايير في أثناء استنتاج آراء النقاد القدماء وأحكامهم على هذا الفن، سواء أكان قصيدة أم غرضاً؛ فانبثق من أحكامهم معايير نقدية متعددة المستويات؛ معيار الفضائل النفسية، وآداب اللياقة، وقصار أبيات المديح، والصدق والغلو، والموازنات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتركيب، وغموض المعاني، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب، وفن اشتقاق المدائح من أسماء الممدوحين، وانحراف المدح إلى الهجاء، ومدح الأعلى بالأدون، ومخالفة المؤلف على صعيدي المعنى والصورة، والقصيدة المدحية الأنموذج. استجلى البحث هذه المعايير كلها في ضوء المادة النقدية التي اشتملت عليها كتب النقد العربي القديم.

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

Criteria of Praise Poetry among the Ancient Arab critics

Dr. Hussein Al Zou'bi*

Abstract

This research deals with the criteria of praise poetry (eulogy) in the context of the old Arab critical discourse .These criteria were expressed during the questioning of the opinion of ancient critics and their judgment on this art. Their judgment resulted in various level of critical criteria, such as the criterion of psychological virtues, the construction of the praise poem, honestly, exaggeration and balances, the affirmation of praise that resembles dispraise, structure, ambiguity of meaning, deviation of praise to satire, praise of the highest using the lowest, opposition of the familiar on the level of meaning and image, and the typical praise poem. The research concludes with the research findings.

*Department of Arabic Language and Literature- Faculty of Arts and Humanities - Damascus University

تمتاز القصيدة الشعرية القديمة بتعدد أغراضها، ويعدُّ شعر المديح ركناً أساسياً من أركانها، "حتى أجمع العلماء القدماء بالشعر على أنه وضع على أربعة أركان: مدح رافع، أو هجاء واضح، أو تشبيه مصيب، أو فخر سامق"¹.

وتحدث ابن رشيقي القيرواني عن أهداف شعر المديح، وميّز نوعين: الأول غايته الشكر، والثاني تكسبي غايته العطاء، قال: وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بني تيم رهط المعلّى:

أقرّحشا امرؤ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

لأنّ المعلّى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء. وقال أيضاً لسعد ابن الضباب:

سأجزيك الذي دافعت عني وما يجزيك عني غير شكري

فأخبره أنّ شكره هو الغاية في مجازاته.

حتى نشأ النابغة الذبياني؛ فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر: فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجزاً يتجر به نحو البلدان. وجاء صدر الإسلام فأكثر الحطيئة من السؤال بالشعر².

وقد تحدث د. وهب رومية عن مرحلة النشأة والتأسيس، وأشار إلى اختلاف القيم الاجتماعية في القصيدة باختلاف الحادثة التي دفعت الشاعر إلى إنشاء قصيدته، ورأى أنّ القيمة مرهونة بأمرين معاً هما: الظرف التاريخي الذي يمر به المجتمع، وظروف الشاعر نفسه. ومن هنا ندرك سر اهتمام امرؤ القيس بقيمة الجوار والوفاء بالوعد³

1 الموشح: ص: 273.

2 العمدة: ج1، ص: 81/80.

3 قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي: ص: 30.

وكثر فن المديح في العصرين الأموي والعباسي، وأصبح كل شاعر يسابق الآخر، كي يصل إلى مجالس الخلفاء، لينال عطاءهم، حتى أوصى الشعراء بعضهم بعضاً بمعايير نقدية تخص مخاطبة الممدوحين، ويبرز ذلك في وصية أبي تمام للبحثري، إذ قال: "وإذا أخذت في مدح سيّد ذي أباد، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه، وتفاض المعاني، واحذر المجهول منها"⁴.

وقد تابع النقاد القدماء شعر المديح، وحكموا على الجيد منه بالجودة، والرديء بالرداءة، فانبتق من أحكامهم معايير نقدية متعددة المستويات.

معيّار الفضائل النفسية:

تتحقق جودة المديح بأربع صفات أساسية تمثل الفضائل النفسية، وهي "العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة؛ كان الفاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً"⁵.

والمدح بغيرها مسألة خلافية، إذ رأى ابن رشيق: أنّ أكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامه، فإنّ أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة، وبسطة الخلق، وسعة الدنيا وكثرة العشيّرة، كان ذلك جيّداً⁶.

وذكر قدامه بن جعفر المثال الأنموذج الذي يحقق الصفات الأربع، وهو قول زهير ابن أبي سلمى:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكته قد يهلك المال نائله

فوصفه في هذا البيت بالعفة، لقلّة إمعانه في اللذات، وإنّه لا ينفد ماله فيها، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال والانحراف إلى ذلك عن اللذات، وذلك هو العدل ثم قال:

4 العمدة: ج 2، ص: 114.

5 نقد الشعر: ص: 96؛ وكتاب الصناعتين: ص: 98.

6 العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده: ج 2، ص: 135.

تراه إذا ما جئته متهلاً
 فزاد في وصف السخاء بأن جعله يهش له، ولا يلحقه مضض، ولا تكرر لفعله، ثم قال:
 فمن مثل حصن في الحروب ومثله لإنكار ضيغ أو لخصم يجادله
 فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة، والعقل. فاستوعب زهير في أبياته
 هذه المديح بالأربع الخصال، التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة⁷.
 وأجاز قدامة للشاعر أن يمدح بفضيلة واحدة من هذه الفضائل، إلا أنه عدّ الشاعر
 مقصراً إذا لم يستعمل الفضائل جميعها⁸.
 وتحدث عن أقسام كل فضيلة من هذه الفضائل، وأصناف تركيب بعضها مع
 بعض⁹.

ثم قسم المديح بحسب الممدوحين، وأطلق في ذلك من مقولة لكل مقام مقال،
 فلمدح الملوك معانٍ، ولمدح ذوي الصناعات من وزراء وكتاب معانٍ، ولمدح قواد
 الجيوش معانٍ ولمدح أصحاب الحرف معانٍ أخرى¹⁰،
 وقد تناول النقاد شواهد خرج بها الشعراء على معيار الفضائل النفسية، منها قول
 ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهاب من اللـه تجلّت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه؛
 وهو اعتدال التاج فوق جبیني الذي هو كالذهب في النضارة¹¹.

7 نقد الشعر: ص: 96-97.

8 المصدر نفسه: ص: 96.

9 المصدر نفسه: ص: 98.

10 المصدر نفسه: 106-110

11 كتاب الصناعتين: ص: 98؛ والموشح: ص: 294.

وعَلَّ قدامة عتب عبد الملك" إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة".¹²

ومثل ذلك قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان:

يا بن الأكارم من قريشٍ كلِّها وابن الخلائف وابن كلِّ قلمس
من فرع آدم كابرًا عن كابرٍ حتَّى أتيت إلى أبيك العنيس
مروان إنَّ قناته خطيئة عُرست أرومتها أعزَّ المغرس

فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس، وإنما ذكر سودد الآباء، وفيه فخر للأبناء.¹³

وكان لمعيار الفضائل النفسية أثر كبير في الأحكام النقدية على غرض المديح. ذكر ابن رشيق القيرواني أنهم قالوا: "لما حضرت الحطيئة الوفاة قال: أبلغوا الأنصار أن أخاهم¹⁴ أمدح الناس، حيث يقول:

يغشون حتَّى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السوادِ المقبل
قال ثعلب: بل قول الأعشى:

فتى لو يباري الشمسَ ألقت قناعها أو القمر السَّاري لألقى المقالدا
أمدح منه. وقال أبو عمرو بن العلاء: بل بيت جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح¹⁵

وفي مكان آخر سئل أبو عمرو بن العلاء "من أمدح الناس؟ قال: الذي يقول:¹⁶

12 نقد الشعر: ص: 185.

13 كتاب الصناعتين: ص: 99؛ ونقد الشعر: ص: 185.

14 حسان بن ثابت: انظر: ديوان حسان بن ثابت: ج1، ص: 74.

15 العمدة: ج2، ص: 139.

16 بشار بن برد: انظر: ديوان بشار بن برد، ج1، ص: 59؛ ونسبا إلى ابن الخياط انظر: الصناعتين:

ص: 200.

لمست بكفّي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أنّ الجود من كفه يُعدي
 فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعداني فبذرت ما عندي¹⁷
 وقال الصولي: "ما قالت العرب أمدح من قول الشاعر:
 تراه إذا ما جئته مهتلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله"¹⁸
 وقال دعبل: بل قول أبي الطمحان القيني

أضاعت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم العقد ثاقبه¹⁹
 وحكى علي بن هارون عن أبيه أنه قال: "أجمع أهل العلم على أن بيتي أبي نواس
 أجود ما للمولدين في المدح، وهما قوله:

أنت الذي تأخذ الأيدي بحجرته إذا الزمان على أبنائه كلحاً
 وكّلت بالدهر عيئاً غير غافلة من جود كفك تأسو كلّ ما جرحاً²⁰

وقد انتخب النقاد القدماء ما تقدم من الأبيات على أنها أفضل ما قيل في غرض
 المديح، وهي أحكام انطباعية عامة لم تعتمد التعليل، وذوقية فالذي فضله ناقد لم يفضله
 آخر، وأنية إذ قدم أبو عمر بن العلاء جريزاً، ثم قدم في مكان آخر ابن الخياط.
 وقامت هذه المنتخبات على الفضائل النفسية والجسمانية من سماحة وكرم وشجاعة
 وعقل وحكمة وجمال.

ويتضمن هذا النوع من النقد عبارات نقدية انطباعية، تعكس استحسان الناقد بعض
 شعر المديح؛ ومما استحسنته ابن المعتز قول علي بن الجهم من رأيته في المتوكل:

إذا نحن شبهناك بالبدر طالعاً وبالشمس قالوا حقّ للشمس والبدر
 ولو قرنت بالبحر سبعة أبحر لما بلغت جدوى أناملك العشر²¹

17 نور القيس: ص: 24.

18 المصدر نفسه: ص: 29.

19 العمدة: ج2، ص: 193.

20 المصدر نفسه: ج2، ص: 140.

21 طبقات الشعراء: ص: 321.

وقد كثر التفضيل الضمني في أغلب كتب النقد القديمة، وبعد كتاب طبقات الشعراء نموذجًا مثاليًا لمثل هذا النقد، فابن المعتز يستحسن كلمة سلم الخاسر في المهدي،²² ولامية العماني في الرشيد،²³ ومما استجاده دالية أبي تمام،²⁴ وأرجوزة دعبل في المأمون،²⁵ ومن جيد ما يروى لسلم الخاسر كلمته في يحيى بن خالد،²⁶ وكان الحسين ابن الضحّاك جيد المدح،²⁷ وكان منصور النّمريّ يمدح الرشيد بالمدائح الجياد التي ليس لأحد مثلها.²⁸

ولم يقتصر النقد الضمني على تلك الأحكام بل رصد النقاد بعض حركات المتلقين التي تدل على دهشتهم في أثناء تلقيهم النص المدحي، فقد أنشد أبو العنابية المهدي قوله:

"أنته الخِلافة منقادةً إليه تجرّر أذيالها
ولم تك تصلح إلا لسه ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيـره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

قال أشجع: فقال لي بشّار وقد اهتز طربًا: وبحك يا أبا سليم أترى الخليفة لم يطر عن فرشه طربًا لما يأتي به هذا الكوفي"²⁹.

وقد استحسن الرشيد مديح أشجع السلمي له، عندما أنشده قصيدته التي على الجيم:

- 22 المصدر نفسه: ص: 102.
23 المصدر نفسه: ص: 111.
24 المصدر نفسه: ص: 284.
25 المصدر نفسه: ص: 266.
26 المصدر نفسه: ص: 100.
27 المصدر نفسه: ص: 270.
28 المصدر نفسه: ص: 243-244.
29 الأغاني: مجلد2، ج4، ص: 282.

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج

شربا بمكة في ذرا بطحائها ماء النبوة ليس فيها مزاج

فلما سمع هذين البيتين كاد يطير ارتياحاً.³⁰

وقد تولدت متعة مباشرة عند استماع كل من بشار والرشيدي لهذا المديح، فاهتزا طرباً وارتياحاً تعبيراً عن إعجابهما بما سمعاه.

وإن النقد الانطباعي بصيغته يرجع إلى الطبيعة كما أشار إسحاق الموصلي: "سألني محمد الأمين في شعرين متقاربين، قال اختر أحدهما فاخترت، فقال: من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان؟ فقلت: لو تفاوتنا لأمكنني التبين، ولكنهما تقاربا، وفضل هذا بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان"³¹.

معياري آداب اللياقة:

يتعلق هذا النقد بمخاطبة الممدوح، إذ يجب على الشاعر أن يتجنب ما يتشاءم منه الممدوح، وأن يهجر ما يستجفي من المعاني المدحية. قال ابن طباطبا: وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفي من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء، ووصف إفقار الديار، وتشتت الألاف، ونعي الشباب، وذم الزمان. ولا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح أو التهاني.³² ومن الشواهد ابتداء الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال؟ وسؤالي وهل تردُّ سؤالي؟

دمنة قفرة تعاورها الصي ف يريحين من صباً وشمال

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس قوله:

أربع البلى إنَّ الخشوع لبادي عليك وإني لم أحنك ودادي

وتطير منه.

30 طبقات الشعراء: ص: 251.

31 الموازنة، بين أبي تمام والبحترى: ص: 374.

32 عيار الشعر: ص: 162.

ولم يوفق البحترى عندما أنشد أبا سعيد محمد يوسف الثُّغري قصيدته التي أولها:

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حيّ تُرْمُ أباعره³³

فقال له أبو سعيد: الويل لك والحرب.

لم يوفق هؤلاء الشعراء في ابتداءاتهم، إذ إنّ المهيئات النفسية مفقودة، فالنفس تميل في طبعها "لما يستفتح لها الكلام به، فهي تنبسط لاستقبالها الحسن أولاً، وتقبض لاستقبالها القبيح أولاً".³⁴ وبذلك كسروا أفق توقع الممدوحين.

وأكد النقاد أن يتجنب الشاعر ذكر بعض الصفات المرضية، فقد غضب عبد الملك ابن مروان من قول ذي الرّمة:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفريّة سرب

وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماءً.³⁵

ومن ذلك أنّ أبا النجم العجلي أنشد هشاماً

"والشمس قد صارت كعين الأحول"

وزهد عنه الروي في الفكر في عين هشام، فأغضبه، فأمر به فطرده.³⁶

وكذلك يجب على الشاعر أن يتجنب التشبيب بامرأة يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح من أمة، أو قرابة، أو غيرها.³⁷ قال أحد الرواة: دخلت على زياد، فقال: أنشدنا.

فقلت من شعر من؟ قال: من شعر الأعشى، فأرتج علي إلا قوله:

رحلت سميّة غدوة أجمالها غضبى عليك فما تقول بدا لها

33 عيار الشعر: ص: 162.

34 منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص: 282.

35 الموشح: ص: 374.

36 المصدر نفسه: ص: 377.

37 عيار الشعر: ص: 163؛ والموشح: ص: 372.

قال: فقطب زياد؛ وعرفت ما وقعت فيه، وقيل للناس، أجزوا فأجزت، فوالله ما عدت إليه.³⁸

ومن الخروج على آداب اللياقة سخف المعنى، ومن هذا ما عابه الحاتمي على المتتبي قوله:

ها فانظري أو فظني بي تري حرقاً من لم يذوق طرفاً منها فقد وألا
علّ الأمير يرى ذلّي فيشفع لسي إلى التي تركنتي في الهوى مثلاً

وذلك أنك عرضت الممدوح للقيادة، برجائك إياه أن يكون شافعاً لك إلى من تحبه، وهذا أسخف معنى تعاطاه شاعر في مخاطبة ممدوح.³⁹ وتعريض الممدوح للقيادة صفة تتناقض آداب اللياقة في مخاطبة الممدوح.

معيّار الاعتدال في عدد الأبيات:

يقصد به عدم تطويل القصائد المدحية أو تقصيرها. وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن يجتنب التقصير والتجاوز والتطويل؛ فإنّ للملوك سامة وضجراً، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب.⁴⁰

وتفرع عن هذا المعيار معيار آخر.

معيّار قصار أبيات المديح:

طلب بعض الخلفاء الإيجاز في المديح، إذ قال الرشيد لحاجبه: من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل. فدخل عمر بن سلمة المعروف بابن أبي السعلاء. فقال له الرشيد: أنشدني قولك:

أغيثاً تحمل الناقـة أم تحمل هاروناً

أنشدك ما اخترته وشرطته اليوم، فقال: بل أنشدني الأبيات فأنشده:

38 الموشح: ص: 373.

39 الرسالة الموضحة: ص: 110.

40 العمدة: ج2، ص: 128.

أغنيًا تحمل الناقـة أم تحمل هارونا
 أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدنيا
 ألا لا بل أرى كل الـ ذي عدّدت مقرونا
 على مفرق هارون فداه الأدميوننا
 فأجزل له في العطاء.⁴¹

وفي الإطار نفسه دخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن:
 يا أبافراس، دعني من شعرك الذي ليس يأتي آخره حتى ينسى أوله، وقال: قل في بيتين
 يعلقان بالرواة، وأنا أعطيك عطية لم يعطكها أحد قط قبلي.⁴²

ويحكى أن جريراً قال: يا بني، إذا مدحتهم فلا تطيلوا المماحة، فإنه ينسى أولها ولا
 يحفظ آخرها.⁴³

ودعا ابن الرومي إلى عدم الإطالة في المديح، لأنّ الإطالة تتحول إلى هجاء، قال:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه⁴⁴

وقال عمر بن العلاء: والله إنّ الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه، ويتعاطاه
 فلا يحسنه، يشيب بخمسين بيتاً، ثم يمدحنا ببعضه، وهذا كأنّ المعاني تجمع له . يقصد
 أبا العتاهية مدحني فقصر التشبيب، وقال:

إنّي أمنت من الزمان وريبه لمّا علقت من الأمير حبّالا

لو يستطيع الناس من إجلاله لحدو له حرّ الوجوه نعالاً⁴⁵

41 طبقات الشعراء: ص: 150-151.

42 العمدة: ج2، ص: 128.

43 المصدر نفسه: ج2، ص: 128.

44 المصدر نفسه: ج1، ص: 189.

45 الأغاني: ج4، ص: 285.

ويبدو أنّ عدم الإطالة في المديح لها غايتان: (الأولى): رغبة الممدوحين في الشهرة، إذ يحفظ الناس الأبيات القليلة وتنتشر بين الناس، فقد سئل أبو عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، قيل فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ منها⁴⁶. و(الثانية): إبرازه وجوه المعاني، وهذا ما رآه ابن رشيقي في مديح البحترى، قال: رأيت البحترى. إذا مدح خليفة. كيف يقلّ الأبيات ويبرز وجوه المعاني.⁴⁷

معيّار الصدق:

عدّ بعضهم الصدق مقياساً للمديح الجيد، وقصدوا به مطابقة الكلام للواقع، فتداول معظمهم مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ قدّم زهيراً لأسباب متعددة؛ منها أنّه لا يمدح الرجل إلا بما فيه⁴⁸.

وعلّل ابن رشيقي القيرواني هذه العبارة النقدية، قال: "لأنه لا يحسن في صناعة الشعر أن يعطي الرجل فوق حقه من المدح... وقد استحسّن عمر الصدق لذاته، ولما فيه من مكارم الأخلاق... ويشهد لقول عمر رضي الله عنه في زهير أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه استحساناً لصدقه ما جاء به الأثر أنّ رجلاً قال لزهير: إني سمعتك تقول لهم:

ولأنت أشجع من أسامة إذ دُعيتُ نزالٍ ولج في الذعر

وأنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال: إني رأيت فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط!! فقد خرج لنفسه طريقاً إلى الصدق وبعداً عن المبالغة... والذي أعرف أنا أنّ البيت المتقدم ذكره لأوس بن حجر.⁴⁹

46 العمدة: ج1، ص: 186.

47 المصدر نفسه: ج1، ص: 28.

48 طبقات فحول الشعراء: السفر الأول، ص: 63؛ والعمدة: ج1، ص: 98؛ الشعر والشعراء: ج1، ص: 76.

49 العمدة: ج1، ص: 98-99.

وابن بسام يمقت الشعر إذا ابتعد عن الصدق الواقعي، فإذا سمع أبا بكر الداني يقول لممدوحه ما معناه: إنك تدفع الجزية للروم لأنك تعطيهم نعمة في لبوس نعمة، تعد ضرراً عليهم: وهذا مدح غرور وشاهد زور، وملق معنف سائل، وخديعة طالب نائل⁵⁰.
وأكد ابن طباطبا غير مرة معيار الصدق سواء ما كان على المستوى الفني أم المعاني، فعلى الشاعر "أن يتعمد الصدق والوفيق في تشبيهاته وحكاياته"⁵¹. وإذا وافقت معاني المديح حالات الممدوح، "تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، ولا سيماً إذا أيدت بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها، والتصريح بما كان يكتُم منها، والاعتراف بالحق في جميعها"⁵².

معيار الغلو:

يعني لغة واصطلاحاً تجاوز حد المعنى والارتفاع به إلى غاية لا يكاد يبلغها⁵³. وقد تبني قدامة بن جعفر هذا المعيار في الحكم على غرض المديح وغيره من الأغراض الأخرى، ويبرز ذلك في الاختلاف، بين قدامة وغيره من النقاد في تقبل الغلو في قول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنّه لتهاكب النطف التي لم تخلق

إذ أنكر كثير من النقاد الذين أخذوا بمعيار الصدق إفراط أبي نواس في مديح الرشيد⁵⁴ في هذه الاستعارة.

ورأى قدامة أن من أنكر على أبي نواس قوله فهو مخطئ، لأنه بلغ النهاية في النعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر الاقتصاد ولزوم الحد الأوسط⁵⁵. وعلل ذلك بقوله: "فإنّ في قول أبي نواس دليلاً على عموم المهابة، ورسوخها في قلب الشاهد،

50 نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: ص: 505

51 عيار الشعر: ص: 44.

52 المصدر نفسه: ص: 55.

53 لسان العرب: مادة غلا وكتاب الصناعتين: ص: 357.

54 الشعر والشعراء: ج2، ص: 685؛ والموشح: ص: 114.

55 نقد الشعر: ص: 94.

والغائب". وفي قوله: "حتى إنّه لتهابك" قوة لتكاد تهابك. وكذا كل غال مفرط في الغلو إذا أتى بما يخرج عن الموجود فإنما يذهب فيه إلى تصبيره مثلاً وقد أحسن أبو نواس، حيث أتى بما ينبئ عن عظم الشيء الذي وصفه⁵⁶.

وذهب النقاد إلى نقد الإفراط في معاني المديح "ومن المديح المفرط قول منصور النمري في هارون:

إذا ما عددت الناس بعد محمدٍ فليس لهارونَ الإمامَ نظيرُ

فضله على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مكروه جداً. أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم ومحمد بن هارون سواء في الخلق والخلق⁵⁷. مما قدم في معياري الصدق والغلو على سعيد غرض المديح، نلاحظ ميل أغلب النقاد القدماء إلى الأخذ بمعيار الصدق سواء أكان ذلك في الصورة أم في المعاني، سوى قدامة الذي تبنى معيار الغلو، متأثراً بالثقافة اليونانية التي أخذت بمذهب أحسن الشعر أكذبه⁵⁸.

معيّار الموازنات:

تعدّ الموازنات النقدية من أبرز المقاييس النقدية، وقد وازن القدماء بين الشعراء في فن المديح، ولم يخلُ كتاب نقدي قديم من هذه الموازنات، حتى إنّ الأمازيغ عنون كتابه باسم "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، وتلمي طبيعة البحث أن تشير إشارة إلى هذا المقياس، ونقصد به التفاضل بين الشعراء في قول مدحي وتغليب أحدهما على الآخر.

روى ابن سلام الجمحي أنّ كثيراً دخل على عبد الملك فأنشده مدحته وفيها:

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المسدّي سردها وأذالها

56 المصدر نفسه: ص: 95.

57 ديوان المعاني: ج1، ص: 58.

58 المصدر نفسه: ص: 94.

فقال له عبد الملك: أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معدي كرب:

وإذا تجئ كتيبة ملمومةً شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المـقـدّم غير لابس جنّة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فقال يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ووصفتك بالحزم⁵⁹.

رأى قدامة بن جعفر أن عبد الملك أصح نظرًا من كثير، إلا أن يكون كثير غلط واعتذر بما يعتقد خلافه، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة، حيث جعل الشجاع شديد الإقدام، بغير جنّة على أنه وإن كان لابس الجنّة أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له، ولا لغيره إلا لابس الجنّة، وقول كثير تقصير في الوصف⁶⁰.

وقدم قدامة قول الأعشى لسبب معنوي، إذ يفضل المبالغة في المعاني على الحد الوسط.

ومن موازنات الأمدي في إطار المديح إنكار أبي العباس قول أبي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

وقال: هذا هو الذي أضحك الناس منذ سمعوه وإلى هذا الوقت، ولم يزد على هذا شيئاً، والخطأ في هذا البيت ظاهر؛ لأنني ما علمت أحدًا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالزفة، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرُجحان والنقل والزّانة، ونحو ذلك قول النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكبر سيِّداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وكما قال الأخطل

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

59 طبقات فحول الشعراء: السفر الثاني، ص: 542.

60 نقد الشعر: ص: 100.

وكما قال عدّي بن الرّقاع في مثل ذلك:

أبنت لكم مواطنٌ طيّباتٌ وأحلام لكم تزنُ الجبالاً⁶¹

وازن الأمدى بين أبي تمام والنابغة والأخطل وعدّي بن الرقاع في وصف اللحم عند الممدوحين، وفضل وصفهم على وصفه، إذ وصف اللحم بالرقّة، ووصفوه بالثقل والرزانة، فأتى أبو تمام بصورة جديدة إذ شبه اللحم بالرقّة فخالف بذلك الذوق العام المتعارف عليه وكسر المبادئ التي يقوم عليها عمود الشعر العربي.

معيّار تأكيد المدح بما يشبه الذم:

هو من الأساليب التي تؤكّد المدح، إذ يقوم على مفاجأة المتلقي بما لا يتوقّعه، ومن مثل ذلك "قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

وكقول الجعدي:

فتىّ كملت أخلاقه غير أنّه جوادٌ فما يُبقي من المال باقياً⁶²

وذكر ابن رشيق هذا المعيار تحت اسم باب الاستثناء، وأشار إلى تسمية ابن المعتز، وذكر المثاليين السابقين، وعلّق على بيت النابغة، قال: "فجعل فلول السيف عيباً، وهو أوكد في المدح"⁶³ وعلى بيت النابغة الجعدي قال: "فاستثنى جوده الذي يستأصل ماله، بعد أن وصفه بالكمال. وبهذا الاستثناء تم وزاد كمالاً وتأكّد حسنه"⁶⁴.

ولا يقتصر هذا الأسلوب على الاستثناء النحوي، وإنما قد يأتي الاستثناء اصطلاحاً، مثل قول النابغة الجعدي:

"فتىّ تم فيه ما يسرُّ صديقَه على أنّ فيه ما يسوء الأعداء

61 الموازنة بين أبي تمام والبحري: ص: 128.

62 كتاب البديع: ص: 62.

63 المصدر نفسه: ج2، ص: 48.

64 المصدر نفسه: ج2، ص: 48.

فكأنه لما كان فيه ما يسوء أعاديه لم يطلق عليه أنه يسر فقط، وذلك زيادة في مدحه، وليس هذا الاستثناء على ما رتبته النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة، وإنما سمي اصطلاحاً وتقريباً، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمي وأصحابه ولم يسم حقيقة".⁶⁵

يبدو أن بعض الشعراء تعمدوا هذا الأسلوب، فجميع الأمثلة المتقدمة تكسر أفق التوقع عند المتلقين، مما يزيد المديح كملاً وحسناً.

المعيار الديني:

ينطلق الحكم النقدي من رؤية إسلامية، ويخص مديح الخلفاء، قال عبد الملك يوماً وقد اجتمع الشعراء عنده: "تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر، وبالبحر والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعز، ألا قلت كما قال أيمن بن خريم:

نهاركم مكابدة وصوم وليكم صلاةً واقتراء
أجعلكم وأقواماً سواءً وبينكم وبينهم الهـواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأعينهم وأرؤسهم سماء"⁶⁶

فعبد الملك يفضل المعاني الدينية على الفضائل النفسية في هذا الموقف النقدي، كي تبرز صورته كإمام للمسلمين، وبذلك يوطد سلطته، ويعزز دعائم حكمه.

معيار التركيب:

تعد سلامة التركيب أمراً ضرورياً لفهم المعنى، وإن اختلله غير الموظف يؤدي إلى التعقيد، ويولد نوعاً من الإبهام. ومن ذلك مديح الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملّكاً أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن إسماعيل بن هشام المخزومي، وهو خال هشام بن عبد الملك أبو هذا الممدوح، فقال: "وما مثله في الناس إلا مملّكاً، يعني بالملك هشاماً. أبو أم ذلك الملك أبو هذا الممدوح، ولو كان الكلام على وجهه لكان قبيحاً، وكان يكون إذا وضع الكلام في موضعه: وما مثله في الناس حيّ يقاربه إلا مملّك أبو أم هذا الملك أبو

65 المصدر نفسه: ج2، ص: 48.

66 ديوان المعاني: ج1، ص: 26.

هذا الممدوح؛ فدلّ على أنّه خاله بهذا اللفظ البعيد، وهجّنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير⁶⁷.

معيّار غموض المعاني:

يقصد به خفاء المعنى وإبهامه حتى يصعب فهمه على المتلقي، ومن ذلك قول أبي تمام:

هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفٍ وَصَوَاحِبِهِ فَعَزَمًا فَفَدِمًا أَدْرَكَ الثَّأْرَ طَالِبَهُ

قال أبو سعيد المكفوف: أخزى الله حبيباً، يمدح مثل هذا الملك الذي فاق أهل زمانه كمالاً بقصيدةٍ يرّحل بها من العراق إلى خراسان؛ فيكون أولها بيت نصفه مخروم والنصف عويص⁶⁸.

أخطأ أبو تمام، فغموض المعنى المدحي وخفاؤه يعدّ عيباً من عيوب المعاني. وكذلك قوله:

فَهُوَ غَضُّ الْإِبَاءِ وَالرَّأْيِ وَالْحَزْ مِ غَضِّ النَّوَالِ غَضُّ الشَّبَابِ

قال ابن المعتز في رسالته: ولا والله ما أدري ما معنى غَضُّ التَّأبِّيِّ ولا غَضُّ الرَّأْيِ في المديح⁶⁹.

يكتنف بيت أبي تمام الإبهام، إذ لم تتوافق بعض المعاني مع غرض المديح، ممّا جعل ابن المعتز يعيب هذا البيت.

معيّار مخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصدّيق:

أسلوب تفرد به المتنبّي فكان شعره مثلاً لهذا النوع من المديح، " وهو مذهب له: تفرد به، واستكثر من سلوكه، اقتداراً منه، وتبحراً في الألفاظ والمعاني، ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء، وتدرّجاً لها إلى مماثلة الملوك، في مثل قوله لكافور:

وما أنا بالباغي على الحبّ رشوةً ضعيف هوئى يبغى عليه ثواب

67 الموشح: ص: 162.

68 الموشح: ص: 500.

69 المصدر نفسه: ص: 488.

وما شئت إلا أن أدلّ عواذلي على أن رأبي في هواك مصيب
وكقوله لسيف الدولة:

مالي أكنتم حباً قد برى جسدي وتدّعي حبّ سيف الدولة الأمام⁷⁰
فقد تعمد المتنبي هذا الأسلوب المدحي في بعض مديحه حتى تميز به، كي يعبر
عن علو مكانته وقربه من ممدوحية.

معيّار فن اشتقاق المدائح من أسماء الممدوحين:

وازن الصاحب بن عباد بين قولين مدحيين في هذا الفن المدحي، "كقول علي بن
العبّاس الرومي:

كأنّ أباه حين سمّاه صاعداً رأى كيف يرقى في المعالي ويصعد
فقتل المتنبي بذلك حبلاً اختنق به فقال:

في رتبة حجب الوري عن نيلها وعلا فسّموه عليّ الحاجبا⁷¹
فضل الصاحب قول ابن الرومي، إذ اشتق من اسم ممدوحه فعلاً يرفع مكانته،
وعاب على المتنبي قوله (الحاجبا) لأن من معانيه البواب، ملتزماً بدلالة اللفظ المفرد،
وإنّ ربط معنى اللفظ بالسياق يعني أن سيف الدولة قد حجب الناس عن نيل هذه المنزلة
العالية.

ورأى الثعالبي أن المتنبي قد أحسن التصرف في مدح سيف الدولة بهذا الفن وضرب
أمثلة كثيرة على ذلك؛ منها:

لقد رفع الله من دولّة لها منك يا سيفها منصل⁷²

لولا سمّي سيوفه ومضاؤه لما سللن لكنّ كالأجفان⁷³

70 بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر: ج1، ص: 237.

71 رسالة في الكشف عن مساوئ المتنبي: ص: 57.

72 بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر: ج1، ص: 230.

73 المصدر نفسه: ص: 230.

تَحَيَّرَ فِي سَيْفٍ: رِبِيعَةُ أَصْلُهُ وَطَابَعَهُ الرَّحْمَنُ وَالْمَجْدُ صَاقِلٌ⁷⁴

من للسيوف بأن تكون سميها في أصله وفرنده ووفائه⁷⁵

كرر المتنبي اسم السيف المشتق من اسم ممدوحه سيف الدولة، كي يرمز إلى شجاعة ممدوحه وقوته المستمرة.

انحراف المدح إلى الهجاء:

هناك نوعان لهذا الانحراف: نوع لم يقصده الشاعر، وآخر يقصده. وعدّ النقاد النوع الأول من سقطات الشاعر، وذلك إذا أخطأ وزلّ، فالأخطل مع مهارته مدح سماكا الأسدي، وهو من بني عمرو، وبنو عمرو يُلقَّبون بالقيون، قال:

نعم المجيرُ سماكٌ من بني أسدٍ بالمرج إذ قتلت جيرانها مضرُ

قد كنت أحسبُه قيناً وأنبوه فاليوم طيرَ عن أثوابه الشرُّ

فقال سماك: يا أخطل، أردت مدحي فهجوتني! كان الناس يقولون قولاً فحقتته".⁷⁶

وأنتد أبو تمام أبا المغيث شعراً له يقول فيه:

وكن كريماً تجدُ كريماً تحظى به يا أبا المغيث

فقال له يوسف بن المغيرة القشيري، وكان شاعراً عالماً: قد هجاك! إنما قال لك كن كريماً، وإنما يقال للثيم: كن كريماً.⁷⁷

والنوع الثاني مقصود، وهو هجاء مبطن في لباس مديح، ويبرز ذلك في مديح المتنبي لكافور، إذ "إنّ المتنبي ينادي بأعلى صوته أن شعره الذي أنشده في كافور كلّه منسوج على منوال يحتمل الضدين، حيث قال:

74 المصدر نفسه: ص: 231.

75 المصدر نفسه: ص: 232.

76 طبقات فحول الشعراء: السفر الثاني، ص: 470-471.

77 الموشح: ص: 504.

وشعر مدحت به الكركدُ بين القريض وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنّه كان هجو الوري⁷⁸
ومن ذلك عاب الحاتمي قول المتنبّي في مديح كافور:
يفضح الشمس كلّما ذرّت الشمـس يشمس منيرة سوداء

وسأل كيف توصف الشمس وصبغها البياض والضياء بالسواد؟ وما وجه استعارة الشمس للأسود إن كنت ذهبت في ذلك إلى الاستعارة، ورأى أن المتنبّي لم يرد إلا أن هذا الممدوح في أوصافه يفضح الشمس طالعة، وهو مع ذلك شمس سوداء، والشمس لا تكون سوداء إلا في حال كسوفها، وإنه لم يذهب في هذا إلا إلى سواد جلده، وقد أنبه في ظاهر الكلام بقوله (سوداء) تأنيباً عاد معه المدح هجاء⁷⁹.
وقد أصاب الحاتمي الحقيقة، لأن استعارة الشمس السوداء في التعبير عن لون ممدوحه فيها احتقار لكافور مع سواد جلده.

مدح الأعلى بالأدنى:

أنشد أبو تمام قصيدة مدح بها الأمير أحمد بن المعتصم، قال:
إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في نكاء إياس
فقال له الكندي: ضربت الأقلّ مثلاً للأعلى. فأطرق أبو تمام ثم قال على البديّة:
لا تتكروا ضربي له منّ دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فإنه قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنّيراس⁸⁰

ينكر الكندي على أبي تمام مديحه، فممدوحه أمير، والذين ذكرهم أقلّ منه، وأعتقد أنه يطعن عليه، فلم يرد أبو تمام الأشخاص وإنما أراد صفاتهم من شجاعة وكرم وحلم وعقل، ولاسيما أنه يضرب المثل بصفاتهم، وبهذه الفضائل النفسية تتحقق جودة المديح.

78 رسالة في قلب كافوريات المتنبّي من المديح إلى الهجاء: ص: 4.

79 الرسالة الموضحة: ص: 66.

80 الموشح: ص 500 - 501

معيار مخالفة المألوف من معاني المديح:

هو خروج عن المعاني المدحية المألوفة السائدة المتعارف عليها عند العرب، ومن ذلك قول أبي تمام:

الودُّ للقريبى ولكن عرفهُ للأبعد الأوطان دون الأقرب

لأنه نقص الممدوح مرتبة من الفضل، وجعل وده لذوي قرابته، ومنعهم عرفه، وجعله في الأبعدين دونهم، ولا أعرف له في هذا عذراً يتوجّه⁸¹. ثم يدعم رأيه بشواهد شعرية جاءت في أشعار العرب تحت على بر الأقارب ومن حمد من وصلهم ونمّ من حرمهم⁸².

ومن هذه الشواهد قول كثير:

لأهل الودِّ والقريبى عليه صنائع بثّها برّ وصول

وللفقراء عائدةً ورحم فلا يُقصى الفقير ولا يعيل

ألا تراه بدأ وده وقرابته فجعل صنائعه فيهم، ثم تثنى بالفقراء فجعل لهم عائدةً ورحمًا⁸³. فهذه طريقة القوم في هذا، وهذا مذهب سائر الأمم⁸⁴.

ومن خروج أبي تمام قوله:

سأحمد نصرًا ما حبيت وإنني لأعلم أن قد جَلَّ نصرٌ عن الحمد

فإنه رفع الممدوح عن الحمد الذي ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به، وينسبوه إليه، وافتتح فرقانه في أول سورة بذكره، وحثّ عليه، وللعرب في ذكر الحمد ما هو كثير في كلامها وأشعارها، ما فيهم من رفع أحدا عن أن يحمد، ولا من استقلّ الحمد للممدوح، قال زهير بن أبي سلمى:

متصرّفٍ للحمّد، معترفٍ للرزء نهّاضٍ إلى الذكّر

81 الموازنة، بين أبي تمام والبحتري: ص: 155.

82 المصدر نفسه: ص: 163-164-165-166.

83 المصدر نفسه: ص: 164.

84 المصدر نفسه: ص: 166.

فقوله "متصرّف للحمد" أي حيث ما رأى خلة تكسبه الحمد التمسها وطلبها. وقال الأعرشي:

إليك أبيت اللعن كان كلالها إلى الماجد الفرع الجواد محمد

فوصفه بأن جعله محمدًا: أي يحمد كثيرًا. وقال الآخر:

"ومن يعط أثمان المحامد يحمد"

فهذه هي الطريقة المعروفة في كلام العرب، ولو قال الطائي "لو جَلَّ أحد عن المدح تحللت عنه كان أعذر".⁸⁵

معيار مخالفة صورة الممدوح الأنموذج:

هي صور استعارية، جانببت الصورة المثالية للممدوح، واستبدلت بها صور أخرى، خالفت الذوق النقدي القديم، ومن ذلك قول أبي تمام:

"أترك حاجتي غرض التواني وأنت الدلو فيها والرشاء

وقوله:

ضاحي المحيًّا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثا

وقوله:

تُنقَى الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجيم

وقوله:

ولى ولم يُظلم وما ظلم امرؤ حث النجاء وخلفه التنين

فهو يجعل الممدوح تارة دلوًا، وتارة محراثا، ومرة رشاءً، وأخرى تنينًا وشيطانًا رجيمًا⁸⁶

لم تتوقف هذه المخالفة الاستعارية لصورة الممدوح على أبي تمام، فقد ذكر الصولي في أثناء دفاعه عن أبي تمام مخالفات كثيرة لعدد من الشعراء، قال: وعابوا على أبي تمام قوله وأسقطوه عند أنفسهم:

85 الموازنة بين أبي تمام والبحري: ص: 184-185.

86 الوساطة بين المتبني وخصومه: ص: 69.

ما زال يهذي بالمواهب دائباً حتى ظنناً أنه محموم

فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر:

جدت بالأمـوال حتى قيل ما هذا صحيح

والمحموم أحسن حالاً من المجنون: لأن هذا يبرأ فيعود صحيحاً كما كان، والمجنون قلما يتخلص. فأبو تمام في تشبيهه الإفراط في الإعطاء والبذل بإكثار المحموم، أعذر من أبي نواس إذ شبّهه بفعل المجنون. ولم لم يعيبوا قول الآخر:

بطلّ تتاذره الكمأة كأنه مما يُدلُّ على الفوارس أحمق

فصيرَ إفراطه في شجاعته كفعل الأحمق الذي لا يميز. وقد قال عبيد اللصّ العنبري قبل، فألم بهذا المعنى إلا أنه قسمه:

ما كان يعطي مثلها في مثله إلا كريم الخيم أو مجنون

وكيف رضوا قول البحترى في هذا:

إذا معشر صانوا السّماح تعسّفت به همة مجنونة في ابتذاله

وقد قال أبو نواس:

جُـدَّتْ بِالْأَمْـوَالِ حَتَّى حَسِبُوهُ النَّاسَ حُمُـقًا⁸⁷

وقد أفرط هؤلاء الشعراء جميعاً في هذا الانزياح الدلالي الاستبدالي لصور الممدوحين؛ فأبو تمام جعل ممدوحه محموماً لإفراطه في كرمه، وأبو نواس جعله مجنوناً مرة وأحمق مرة أخرى، والآخر أقام مشابهة افتراضية بين شجاعة الممدوح والأحمق، وعبيد جعله مجنوناً، والبحترى ماهى بين همة ممدوحه في الكرم والمجنونة، وهي صور لا يستسيغها الذوق النقدي العربي القديم.

87 أخبار أبي تمام: ص: 32 - 33.

معيار المديح الأنموذج:

يبدو ذلك في كمال المدح، إذ قدم الحسن بن وهب مديح أبي تمام في المعتصم على الشعر كلّ، قال: وأما الشعر فلا أعرف . مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه وحديثه. أحسن من قول أبي تمام في المعتصم بالله ولا أبدع معاني، ولا أكمل مدحاً ولا أعذب لفظاً، ثم أنشد:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أبرادها القشب

الأبيات.

ثم قال: هل وقع في لفظه من هذا الشعر خلل؟ كان يمرّ للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجأون بذلك، وهذا كلّه بديع جيد⁸⁸.

يرى الحسن بن وهب أنّ نصّ أبي تمام من أجود ما قيل في فن المديح قديماً وحديثاً، وذكر أسباب التفضيل؛ الألفاظ الحلوة الرائعة الرقيقة، والمعاني المبتكرة التي لا نظير لها، واكتمال المديح.

وتعدّ قصيدة أبي تمام لوحة فنيّة فريدة، إذ وظف الشاعر البنى التّصويرية، فكانت أدوات فاعلة في إنتاج المعاني وتشكيل النص الشعري المدحي الأنموذج.

نتائج البحث:

- ❖ كان فن المديح من الأغراض الأربعة الرئيسية في الشعر العربي، بدأ عفويًا، ثم أصبح مقصودًا من أجل التكسب.
- ❖ ربط النقاد معاني المديح حسب مكانة الممدوحين، وميزوا بين مديح الخلفاء والوزراء وأصحاب المهن.

88 أخبار أبي تمام للصولي: ص: 109 - 114.

- ❖ جوهر المديح المثل الأخلاقية، وتمثلت بالفضائل النفسية من شجاعة وكرم وحلم وعفة، وأضاف بعضهم الصفات الجسمانية من جمال وبهاء.
- ❖ كانت الأحكام الانطباعية؛ عامة، وذوقية، وأنية، ولم تخرج على معيار الفضائل النفسية والجسمية.
- ❖ يتضمن معيار آداب اللياقة:
- ❖ أن يتجنب الشاعر ما يستجفي منه في مقدمات القصائد، وألا يذكر الصفات المرضية عند الممدوحين، وأن يتعد عن التشبيب بامرأة يوافق اسمها اسم أقرباء الممدوحين، ولا يأتي بما لا يليق بالممدوح من أفعال.
- ❖ إن معيار تأكيد المدح بما يشبه الذم يزيد في كمال المدح وحسنه.
- ❖ أعجب بعض النقاد بأسلوب المتنبي في مخاطبة ممدوحه بمثل مخاطبة المحبوب، وكذلك في فن اشتقاق المدائح من أسماء الممدوحين.
- ❖ عاب النقاد عدم سلامة التركيب، وغموض المعاني، ومدح الأعلى بالأدنى، ومخالفة المألوف سواء أكان ذلك على صعيد المعنى أم على صعيد الصورة.

المراجع

1. أخبار أبي تمام: الصولي، تح: خليل عساكر محمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، دار الآفاق، بيروت لبنان، ط3، 1980.
2. الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط2.
3. ديوان بشار بن برد: شرح وتعليق محمد الطاهر ابن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
4. ديوان حسان بن ثابت: تح: د. وليد عرفات، ج1، دار صادر، بيروت، 1974.
5. ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، تح: محمد عبده ومحمد الشنقيطي، عالم الكتب، مصر، د.ت.
6. رسالة في قلب كافوريات المتنبي: عبد الرحمن بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي، تح: محمد يوسف نجم، دار صابر، بيروت، ط2، 1993.
7. رسالة بالكشف عن مساوئ المتنبي: الصاحب بن عباد، تح: محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1965.
8. الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره: أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، تح: محمد يوسف نجم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1931.
9. الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان.
10. طبقات الشعراء: ابن المعتز، تح: عبد الستار أحمد فرج، دار المعارف، مصر، ط4، 1956.
11. طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة وجدة، ط1، 1991.
12. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972.
13. عيار الشعر: ابن طباطبا، تح: محمد سلام زغلول، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1977.
14. قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد: د. وهب رومية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1981.

15. كتاب البديع: عبد الله بن المعتز، تح: أغناطيوس كراتشكوفسكي، دار الحكمة، دمشق، د.ت.
16. كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، 1986.
17. لسان العرب: ابن منظور.
18. منهاج البلغاء وسراج الأدياء: أبو الحسن حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجا، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.
19. الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الأمدى، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1944.
20. الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء: المرزباني، تح: مجمد علي البجاوي، ط2، دار النهضة، مصر، 1965.
21. نقد الشعر: قدامه بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
22. نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: إحسان عباس، دار الأمانة، بيروت، لبنان، 1971.
23. النقد المنهجي عند العرب: محمد مندور، دار النهضة، القاهرة، د.ت.
24. نور القبس المختصر عند المقتبس: المرزباني، تح: رودلف زلهام، بيروت، 1964.
25. الوساطة بين المتتبي وخصومه: علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، 1966.
26. يتيمية الدهر: أبو منصور عبد الملك الثعالبي، شرح وتحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983.